

الجهاد والجماعة دراسة في دور علماء الشام في تكون مذهب أهل السنة

رضوان السيد*

الجامعة اللبنانية

ABSTRACT

This article tries to assess the role of the Learned (*Ulama*) in the formation process of the Islamic political thinking.

The author tries to examine the role within the following three realms:

- a) The role in leading the Holy War (*Jihad*),
- b) Their serious attempt to maintain the solidarity of the Islamic community in Bilad al-Sham, and
- c) Their eagerness to propagate the concept of Sunnah against any other Islamic sects.

This role is clearly manifested in the writings of the *Ulama* during the 1st Islamic century within the context of Bilad al-sham.

ملخص

يحاول هذا البحث إبراز دور علماء الشام في القرن الأول في تكوين الفكر السياسي الإسلامي، وقد انصب على توضيح ثلاثة مفاهيم أساسية كان لها إسهامات ظاهرة في نشرها وإعادة تأويلها وسط ظروف بلاد الشام، وهي: الجهاد والجماعة والسنة.

وقد أظهر الباحث تحاور هذه المفاهيم الثلاثة ضمن المنظومة الاجتماعية والسياسية والفكرية التي ظهرت فيها. وقد ظهر هذا واضحاً في كتب عقائد أهل السنة.

★ أستاذ الدراسات الإسلامية في الجامعة اللبنانية ورئيس تحرير مجلة الفكر العربي.

ينسب الذهبي إلى الأوزاعي (ت ١٥٧هـ/٧٧٣م) قوله^(١)، خمسة كان عليها الصحابة والتابعون: لزوم الجماعة، واتباع السنة، وعمارة المساجد، والتلاوة، والجهاد. وليس بعيداً أن تكون النسبة صحيحة، فالأوزاعي يذكر الصحابة والتابعين ولا يذكر السلف مما يدل على أن المفهوم لم يكن قد ساد بعد. ثم إن المضامين الخمسة المذكورة شهدتها الأوزاعي نفسه في بلاد الشام. فالجماعة هي المفهوم الرئيسي الذي ناضل الشاميون في ظله منذ عهد عثمان في وجه الخطرين الداخلي والخارجي. والسنة كانت الشعار الدائم للمناضلة البدع والأحداث كما سنرى. ولا أبلغ من مسجد بني أمية بدمشق في التعبير عن قضية الإقبال على عمارة المساجد. ومدرسة التلاوة الشامية مشهورة تعود إلى الصحابي أبي الدرداء (٣٣هـ/٦٥٣م) فيما يرويه ابن عساکر^(٢). أما الجهاد وقرينه الرباط فكانا وما يزالان جوهر الوجود الشامي ومعنى استمراره. والأوزاعي المرباط والمجاهد وحامل السنة والذاب عن الجماعة الصورة النموذجية للفقهاء الشامي في العصر الأموي، وهي صورة كان لها أصولها في ثلاثينات القرن الأول وكانت لها تأثيراتها على بلاد الشام، ومذهب أهل السنة والجماعة فيما تلا من قرون. ومحاولتنا في هذه الورقة تنصب على ثلاثة مفاهيم أساسية نرى أنه كان لعلماء الشام في القرن الأول إسهامات ظاهرة في نشرها وإعادة تأويلها وسط ظروف بلاد الشام، وهي الجهاد والجماعة والسنة. وقد تحولت هذه المفاهيم ذات الصبغة الشامية إلى تأسيس في المنظومة العقدية لأهل السنة والجماعة، وذلك منذ نهايات القرن الثاني الهجري.

جاء في الحديث الصحيح عن طاوس عن ابن عباس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال يوم فتح مكة^(٣): إنه لا هجرة ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا. والمفهوم هنا أن الهجرة التي شدد عليها رسول الله (ص) من قبل، وعني بها الهجرة إلى دار الإسلام (المدينة) كانت تتراجع أمام مفهوم آخر هو الجهاد. وما كان ذلك مستغرباً، فإذا كان واجب الهجرة قائماً على التحول عن دار الكفر إلى دار الإسلام، فإنه منذ العام التاسع للهجرة تقريباً كادت الجزيرة العربية بمجموعها أن تكون دار إسلام، فلم يعد هناك مسوغ لاختصاص المدينة المنورة بالهجرة إليها. وكان المقصود من الإصرار على التحشد والاجتماع بالمدينة في البداية الانطلاق منها لضرب دار الكفر بالجزيرة العربية. وما دامت دار الكفر قد ضربت، فإن الجزيرة كلها - وقد صارت دار إسلام - تحول لتحقيق الأغراض الأولى للهجرة - وإن باسم آخر - عن طريق الانطلاق من الجزيرة الإسلامية لمجاهدة الكفر خارجها^(٤).

بيد أن المسألتين بالنسبة لأهل الشام ظلتا على الدرجة نفسها من الأهمية، كانت الهجرة ضرورة لهم، كما كان الجهاد. فبخلاف العراق لم يستطع المسلمون بالشام ضرب العدو الخارجي ضربة نهائية. كانت الدولة البيزنطية ما تزال قائمة. وكانت ما تزال تتهدد الوجود الإسلامي في الشام كله. وعندما كان المسلمون يعانون الحرب الأهلية الأولى بعد مقتل عثمان، كانت الدولة البيزنطية تمر بمرحلة استقرار ونهوض في ظل الإمبراطور قسطنطين الرابع^(٥) (٦٦٨-٦٨٥م) الذي أنزل هزيمة بالمسلمين في البحر عام ٦٧٨م تبعها صلح دفع بمقتضاه معاوية للبيزنطيين ضريبة سنوية^(٦) وقد نقض يزيد بن معاوية (٦٥٩-٦٨٤هـ)

١. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله (ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧م)، تذكرة الحفاظ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد صدر ١٣٣٣هـ، ج ١، ص ١٦٢.
٢. ابن عساکر، علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١ هـ/١١٧٥م) تاريخ مدينة دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، نشر المجمع العلمي بدمشق ١٩٥٤، ج ١، ص ٣١٥.
٣. الأثر في المصنف لعبد الرزاق ٣٠٩/٥ رقم ٩٧١٣. وهو في صحيح البخاري ومسلم، وسنن سعيد بن منصور ٣/ رقم ٢٣٣٨، وجامع الترمذي ٣٩٣/٢. وهناك أثر آخر بالمعنى نفسه لكنه مرسل عن طاوس في مصنف عبد الرزاق ٣٠٩/٥ رقم ٩٧١١، وسنن النسائي ١٦٣/٢. وقارن بأثر ثالث عن أنس بن مالك في سننه مجهول: مصنف عبد الرزاق ٣٠٩/٥ رقم ٩٧١٢.
٤. عالجت موضوع الهجرة والجهاد بتفصيل في دراسة لي بعنوان: «تكون مفهوم الأمة في الإسلام» أقيمت في مؤتمر سابق. وتصدر في كتابي: الأمة والجماعة والسلطة. دراسات في الفكر السياسي العربي الإسلامي، دار اقرأ ببيروت. ١٩٨٤.

Ostrogorsky Geschichte des byzantinischen Staates 103 ff.

Wellhausen, Romäer; Eichhoff. Seekrieg 22 f.

الصلح مع البيزنطيين فقام جنده بحملات متتالية في الأرض البيزنطية انتهت بوفاته ونشوب الفتنة الثانية^(٧) وتحت ضغط البيزنطيين ترك المرابطون المسلمون مرعش وملطية، وضاعت رودس وقبرص^(٨) ومن ناحية الجزيرة الفراتية ضاعت ارمينية^(٩) فلما وصل عبد الملك بن مروان (٨٦٥-٨٦٠هـ) للسلطة بعد وفاة والده اضطر لتجديد صلح معاوية مع البيزنطيين لضرب أعدائه الداخليين. وقد تم الصلح بشروط مذلة جديدة^(١٠) ثم أن انتهاء الفتنة بمقتل ابن الزبير عام ٧٢هـ لم يمهله التحدي البيزنطي. فقد تراجع مسلمة بن عبد الملك كما هو معروف دون تحقيق نتائج ملموسة أمام أسوار القسطنطينية^(١١) وتذكر الدراسات هزيمة برية قاسية أمام البيزنطيين عام ١١٣ هـ/٧٣١م^(١٢).

أما في الداخل، فبخلاف العراق أيضاً كان المسلمون ما يزالون قلّة مرابطة في المدن والعواصم والثغور. وكان السكان المحليون ما يزالون في غالبهم مسيحيين. ويفسر هذا إقدام يزيد بن معاوية على إعادة تجميع المرابطين المسلمين ببغداد وصيدا دون سائر المدن الساحلية الأخرى بسبب قتلهم وتعريضهم للهجوم من الداخل والبحر في الوقت نفسه^(١٣). وقد تمكن البيزنطيون من استعادة طرابلس لبعض الوقت في إحدى الفترات^(١٤). كما أن البيزنطيين استطاعوا في مناسبتين أو أكثر إثارة الداخل المسيحي على المسلمين، خصوصاً أيام عبد الملك بن مروان، ثم أوائل أيام بني العباس^(١٥).

برزت الحاجة إذن منذ البداية إلى أمرين اثنين: الإصرار على استمرار الجهاد والرباط من أجل الحفاظ على ما فتحه المسلمون من بلاد الشام بعد أن تضاءلت الآمال بسحق الدولة البيزنطية، ومحاولة استجلاب مسلمين جدد إلى بلاد الشام لتثبيت الوجود الإسلامي هناك أما في المجال الأول فنلاحظ أن علماء الشام من التابعين أكثروا من رواية أحاديث الجهاد وفضله عن الصحابة المجاهدين والمرابطين بالشام. أقدم تلك الآثار تلك التي يرويها مالك بن يخامر الشامي عن معاذ بن جبل (ت ١٨هـ/٦٣٩م) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضل الجهاد والشهيد^(١٦) أما معاذ فقد مات بالأردن أثناء طاعون عمواس، وأما مالك بن يخامر السكسكي فمات بفلسطين أيام عبد الملك بن مروان^(١٧) ثم هناك الأثر الذي يرويهِ كثير بن مرة الشامي عن عبادة بن الصامت (ت ٣٤هـ / ٦٥٤م) بفلسطين، والسذي يرى أن لا خير في الدنيا والآخره يضاهي الجهاد في سبيل الله^(١٨). والأثر الذي يرويهِ أبو قلابة الشامي عن الصحابي الشامي عمرو بن عبسة مرفوعاً إلى النبي في فضل الرامي في سبيل الله^(١٩). ويروي خالد بن معدان الشامي بطريق الصحابي المرباط بالشام المقدم بن معدي كرب، (ت ٨٧هـ) أثراً مرفوعاً يخص الشهيد بخصال تسع^(٢٠).

٧. خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/٥٥٤م)، تاريخ خليفة بن. خياط، تحقيق سهيل زكار، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي السورية دمشق ١٩٦٨، ج ٢، ص ٢٢٥-٢٢٧.
٨. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، نشر مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٦، ص ٢٢١-٢٤٤، انظر كذلك، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ١٥٧، وابن أعثم، كتاب الفتوح ج ١ ص ١٢٧.

٩. Ghazarlan, Armenian unter der arabishen Herrschaft.
١٠. Wellhausen, Romaer, 428.
١١. Wellhausen, Romaer 436; Eichhoff, Seekseg 68 f.
١٢. Ostrogorsky, Geschichte 128 ff.
١٣. G. Rotter, Die Umayyaden und der zweite Burgerkrieg, 171 f.
١٤. انظر دراسة عمر تدمري في مؤتمر ابن عساكر بدمشق (١٩٧٩) التي نشر فيها نصوصاً عن ذلك من تاريخ ابن عساكر الكبير.
١٥. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٨٩ وما بعدها، انظر كذلك Wellhausen, 421, Rotter pp. 74-76.
١٦. الحديث في المصنف لعبد الرزاق، ج ٥، ص ٢٥٥ رقم ٩٥٣٤ وانظر كذلك، الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر (ت ٨٠١ هـ/١٤٠٤م) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٣٨٥/٨٠١.
١٧. ابن حبان، مشاهير علماء الأمصار، ص ٥٠، ١١٩.
١٨. جامع الترمذي، ١٥/٣.
١٩. المصنف لعبد الرزاق ٢٦٠/٥، رقم ٩٥٤٤.
٢٠. سنن سعيد بن منصور ٣/ رقم ٢٥٤٨ والهيتمي، مجمع الزوائد ٢٩٣/٥ عن أحمد ان الحديث من رواية الصحابي الآخر النازل بالشام عبادة بن الصامت.

ويروي شرحبيل بن السمط الكندي عن سلمان الفارسي أثراً طويلاً في فضل الرباط، وشرحبيل حمصي مشهور^(٢١). أما مثل أبي أيوب الأنصاري (ت ٥٥٥ هـ) فمشهور معروف. فقد روى الرجل أحاديث كثيرة في فضل الجهاد، وشارك بنفسه رغم شيخوخته المتقدمة في الصوائف والشواتي حتى استشهد أمام أسوار القسطنطينية، فيما يقال^(٢٢). والدوافع نفسها هي التي حدث بأبي الدرداء (ت ٥٣٣ هـ / ٦٥٣ م) الصحابي المشهور للذهاب للشام والمراطة بها، بحمص، وبدمشق ثم ببيروت^(٢٣). بل إن سلمان الفارسي صديق أبي الدرداء جاء إلى بيروت من أجل الرباط أيضاً^(٢٤).

وتعكس آثاراً متعددة خلافاً في الرأي حول الغزو في البحر. فهناك محدثون مكبون ومدنيون منهم ابن المسيب وابن جريج والضحاك بن مزاحم يكرهون الغزو في البحر لأنه يعرض المسلمين للهلاك ويمضون فيرون ذلك عن عمر بن الخطاب وابن عمر، بل ورسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢٥). في حين يصر الشاميون، وعلى رأسهم الصحابي مسلمة بن مخلد (ت ٦٢٢ هـ / ٦٨١ م) الذي رابط وقتال بالشام ومصر، أن لغزو البحر فضلاً على غزو البر لزيادة مشقته^(٢٦). ويرد عطاء الشامي على ابن المسيب في كراهية الغزو بالبحر فيروي أحاديث عن عبدالله بن عمرو بن العاص (ت ٦٣٣ هـ / ٦٨٢ م) في أن الغزوة بالبحر أفضل من عشر غزوات في البر^(٢٧)، وغني عن البيان أن هذا الاختلاف في الرأي بين الشاميين والمدنيين يعكس حاجة الشاميين إلى الأسطول، والغزو البحري بسبب التهديد المستمر للأسطول الرومي. بينما كان ابن المسيب ما يزال يذكر تردد عمر بن الخطاب في الإذن لعمرو بن العاص باستخدام السفن للغزو.

وقاد الشاميين اضطرارهم إلى الاستمرار في الاستعداد والمراطة دفاعاً عن وجودهم إلى نزاع فقهي وعقدي من نوع أهم مع علماء الأقطار الأخرى. إذ يبدو أنه في سنوات الفتنتين، خصوصاً الثانية منهما؛ كان الشاميون يعانون الأمرين من البيزنطيين والأرمن والجراسمة؛ فكان فقهاؤهم يرون ضرورة الجهاد والمراطة ويفتون بذلك بينما أصر المدنيون والعراقيون على أن الجهاد «من العمل الحسن»^(٢٨) لكنه ليس واجباً. فعن مكحول الشامي (ت ١١٢ هـ / ٧٣٠ م) «أنه كان يستقبل القبلة ثم يحلف عشرة أيمان أن الغزو لواجب عليكم». ثم يقول: إن شئتم زدكم. وذكر الأوزاعي أنه سمعه عن مكحول^(٢٩). ويروي مكحول حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه^(٣٠): «ما من أهل بيتٍ لا يخرج منهم غاز أو يجهزون غازياً أو يخلفونه في أهله إلا أصابهم الله بقارعة قبل الموت» أما عطاء بن أبي رباح المكي (ت ١١٤ هـ / ٧٢٣ م) وعمرو بن دينار وعبد الكريم الجزري فيقولون إنه ليس واجباً، وإن الحج مجزئ^(٣١). ومع أن مذهب مكحول الأوزاعي وسائر الشاميين لم يجد التعبير الكامل عنه في عقيدة أهل السنة فيما بعد، فيما يتصل بفرضية الجهاد، فإنه على أي حال وجد التعبير النسبي من ضمن عقيدة أهل السنة في

٢١. مسلم بن حجاج، أبو الحسن (ت ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م) صحيح الإمام مسلم ج ٢، ص ١٤٢، وانظر كذلك سنن سعيد بن منصور ٣ / رقم ٢٣٩٥.
٢٢. المصنف لعبد الرزاق ٥ / ٢٧٨، ٢٧٩، وانظر كذلك، أبو زرعة، عبد الرحمن بن عمرو الدمشقي (ت ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م)، تاريخ أبي زرعة ج ١، ص ١٨٨.
٢٣. تاريخ أبي زرعة ج ١، ص ٢٢٢.
٢٤. أبو زرعة: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٢٢.
٢٥. المصنف لعبد الرزاق ٥ / ٢٨٣، ٢٨٤، وسنن سعيد بن منصور ٣ / رقم ٢٣٧٨، وقارن بكتاب الجهاد لابن المبارك، ص ١٥٨.
٢٦. المصنف لعبد الرزاق ٥ / ٢٨٦، رقم ٩٦٣٣.
٢٧. انظر سنن سعيد بن منصور ٣ / رقم ٢٣٨١، وكتاب الجهاد لابن المبارك، ص ١٥٧.
٢٨. المصنف لعبد الرزاق ج ٥، ص ١٧٣ رقم ٩٢٧٩ عن عبدالله بن عمر.
٢٩. المصدر نفسه ج ٥، ص ١٧٤ رقم ٩٢٨١.
٣٠. المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٧٢ رقم ٩٢٧٥، وانظر أحاديث عن مكحول في الجهاد في المصنف ج ٥، ص ٢٨١، ٢٥٨، رقم ٩٥٣٩.
٣١. المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٧١-١٧٤.

العبارة المشهورة التي تضع الجهاد والصلاة في كفة واحدة ضمن الجماعة^(٣٢): الصلاة وراء كل إمام، والجهاد مع كل إمام. ويكرر الشاميون القول المنسوب لابن سيرين (ت ١١٠ هـ / ٧٢٨ م)^(٣٣): «لا تشهدوا على أمتكم بشرك، ولا تكفروهم بذنب. والجهاد لا يضره جور جائر ولا عدل عادل. والجهاد ماضٍ حتى يبعث آخر هذه الأمة. والإيمان بالقدر خير»^(٣٤).

وإذا كان موقع بلاد الشام في متناول الهجمات البيزنطية بين أسباب هذا التأكيد المستمر على الجهاد، فإن استمرار القتال على الحدود، والتهديد السكاني في الداخل دفع علماء الشام إلى العمل مع الأمراء هناك على زيادة عدد المسلمين على الأرض المفتوحة في الساحل والداخل والثغور والدروب. وكان معاوية قد استقدم مسلمين جدد من العراق يبلغون الخمسين ألفاً فأسكنهم في السواحل^(٣٥). في حين نشر علماء الشام ومحدثوها آثاراً عن النبي والسلف تجعل الجهاد بالشام وجهاً آخر لمبدأ الهجرة، بدل أن يحل محله كما في الأثر الذي أوردناه سابقاً. إن الهجرة للشام بحسب هذه الآثار مطلوبة لأنه «عقر دار المؤمنين» و «الأرض المباركة» و «أرض الحق» و «الباقية بعد خراب الأمصار» و «آخر معاقل العرب»^(٣٦). حتى إذا اندفع المسلمون إلى هذه الأرض المباركة، وجدوا آثاراً أخرى تعتبرهم في دار هجرتهم الجديدة «مرابطين دائمين» حتى ولو لم يقصدوا الثغور. ففي حديث لأبي الدرداء المرابط ببغداد، ومن قبل بحمص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣٧): «أهل الشام وأزواجهم وذرياتهم وعبيدهم وأماؤهم إلى منتهى الجزيرة مرابطون في سبيل الله. فمن احتل منها مدينة من المدائن فهو في رباط، ومن احتل منها ثغراً من الثغور فهو في جهاد».

وما أن جاءت مطالع القرن الثاني الهجري حتى كانت أرض الشام «أرض الجهاد»^(٣٨) الوحيدة في دار الإسلام تقريباً. فوجدت الآثار التي يرويها الصحابة الشاميون، والتابعون هناك قبلاً لدى محدثي المدينة والبصرة على الخصوص. ويبدو ذلك في الأثر الوارد في فضل الرباط بعسقلان^(٣٩)، مما دفع عطاء بن يسار للمرابطة أربعين يوماً بها كل عام^(٤٠). ويعود المدنيون والبصريون للاهتمام بحديث آخر يرويه الشاميون عن صحابي نزل بينهم هو عبدالله بن حوالة (ت ٥٨ هـ / ٦٧٧ م)؛ فقد ذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال^(٤١): «ستجندون أجناداً جنداً بالشام، وجنداً بالعراق، وجنداً باليمن، قال عبدالله؛ فقلت فقلت: خير لي يا رسول الله! فقال: عليكم بالشام. فمن أبى فليلحق بيمنه. فإن الله عز وجل تكفل لي بالشام وأهله، قال أبو إدريس الخولاني، ومن تكفل الله به فلا ضيعة عليه» ونستطيع أن نحس

٣٢. البغدادي، عبد القاهر بن منصور (ت ٤٢٩ هـ / هـ) الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٣، ص ١٢٨. وانظر كذلك التنبيه والرد للملطي، ص ٧٦.

٣٣. المصنف لعبد الرزاق، ج ٥، ص ٢٧٩ رقم ٩٦١١، وينسب القول للحسن البصري، لكن عند ابن سيرين أصح.

٣٤. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١١٧، ١٦٢، ٢٨٠، ٣٧٦.

٣٥. ابن عساکر، تاريخ دمشق الكبير، ج ١، ص ١٠٣، ١٢٩، ١٦٣، ١٧٢، ١٨٥، ٢٩٦، ٢٩٩، وكتاب الجهاد لابن المبارك، ص ١٥٢.

٣٦. الربيعي، علي بن محمد بن صافي الربيعي، (ت ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م)، فضائل الشام، ص ١٠-١١.

وانظر كذلك، ابن عساکر، تاريخ دمشق الكبير، ج ١، ص ١٧٩-٢٠٧، ويذكر الشيخ الألباني في تعليقه على أحاديث كتاب الربيعي ص ٩٤-٩٥ أن الحديث ضعيف. وقارنه بمجمع الزوائد ج ١٠، ص ٦٠.

٣٧. تسمية منسوبة لعائشة أم المؤمنين، في تاريخ دمشق الكبير ج ١، ص ٢٧١ وفي كتاب الجهاد لابن المبارك ص ١٥٣ أن عثمان بن عفان سمى أهل الشام: المهاجرين.

٣٨. المصنف لعبد الرزاق ج ٢، ص ٢٨٧.

٣٩. سنن سعيد بن منصور ٣ / رقم ٢٤٠١.

٤٠. أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م) مسند الإمام أحمد بن حنبل، بعناية محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ودار صادر بيروت، ج ٥، ص ٣٣. وانظر كذلك مستدرک الحاكم، ج ١، ص ٥١، ومن المصادر الشامية، فضائل الشام ودمشق للربيعي ص ٥ رقم ٤، وتاريخ دمشق الكبير، ج ١، ص ٦١ وما بعدها، وانظر تعليق الألباني على أحاديث الربيعي ص ٩١-٩٢، وهو مرسل عن أبي إدريس الخولاني في كتاب الجهاد لعبدالله بن المبارك ص ١٥١.

الضيق الذي كان يلم بأهل الشام وهم ينشرون هذا الأثر تتبعه تعزية الخولاني بكفالة الله للشام.

يروى المحدث الشامي صفوان بن رستم عن الشامي عبد الرحمن بن ميسرة عن تميم الداري الصحابي النازل بالشام عن عمر بن الخطاب أنه قال مخاطباً العرب^(١١): يا معشر العريب! الأرض الأرض! إنه لا إسلام إلا بجماعة ولا جماعة إلا بإمرة، ولا إمارة إلا بطاعة.

إن الوجود الإسلامي بالشام، هكذا فهم الشاميون قوله عمر، يقتضي وحدة في الكلمة تمكن من الاستمرار. بل إن الجهاد لا يمكن متابعته، والمراعاة لن تظل متحققة ما لم يكن هناك مقوم لهما هو وحدة الجماعة. وهناك آثارٌ عن رسول الله رواها ابن عباس وجابر بن عبد الله وأبو هريرة وأبو موسى الأشعري، وتلقاها الشاميون فنشروها، تجعل الجماعة بإجماعها خلفاً لرسول الله فمن شذ عن الجماعة شذ في النار. وما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن. ولن تجتمع أمتي على ضلالة، والجماعة رحمة والفرقة عذاب^(١٢). وغني عن البيان أن مفهوم «جماعة المسلمين» وأثاره الفقهية، ليس شامياً، بل يصدر عن القرآن من مبدأ أخوة المؤمنين العامة، وسنة رسول الله القولية والعملية التي جعلت المسلم أخا المسلم لا يظلمه ولا يسلمه وجعلت المؤمنين في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر^(١٣). ما فعله الشاميون هو أنهم اهتموا بنشر هذه الآثار بشكل أوسع وأنشط مما كان الأمر لدى العراقيين: هذا وإن يكن التابعون المدنيون وبعض البصريين قد أسهموا في ذلك إسهاماً مذكوراً. ثم كان إسهامهم الثاني والأهم مصيرهم إلى تأكيد الوجه السياسي لمفهوم الجماعة، وهو وجه كان لهم فيه خصوم كثير، لكن فهمهم هو الذي برز وتثبت في عقيدة أهل السنة. وكان هناك اتجاهان في فهم الجماعة. الاتجاه الأول: وهو مدني بصري إلى حد ما يرى أن الإجماع المعتبر هو إجماع الصحابة، بينما أثر الشاميون -دعاة الاتجاه الثاني- أن لا يربطوا الإجماع بجيل أو زمان؛ ورأوا أن سائر المسلمين في كل عصر هم الذين يتبلور فيهم اسلام الجماعة فيكون إجماعهم حجة تشريعية^(١٤).

يقول الزهري (ت ١٢٤هـ / ٧٤١م) في تصويره لأحداث الفتنة الأولى ومقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: «... واستخلف أهل العراق الحسن بن علي على الخلافة وكان الحسن لا يريد القتال، ولكنه كان يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية ثم يدخل في الجماعة ويبيع^(١٥)». وواضح أن هذا الفهم للجماعة مدني شامي أو هو شامي فقط. فعندما استشهد الإمام علي كان الشاميون والمصريون قد بايعوا معاوية فقط. أما سائر المسلمين: فكانوا ما يزالون على بيعتهم لعلي. لهذا لا يمكن القول إن الحسن كان يريد الدخول في الجماعة إذ لم تكن هناك جماعة على معاوية بعد، لكن الشاميين اعتبروا معاوية أحق الناس بالأمر بعد مقتل علي، ورأوا أنفسهم الجماعة ذات الإمام الشرعي الذي ينبغي أن تجتمع عليه الأمة. في هذا الصدد يذكر الشامي الوليد بن مسلم رأياً لسعيد بن عبد العزيز شيخ أهل الشام في زمانه فيه أنه لما قتل عثمان اختلف الناس، فلم تكن غازية ولا صائفة حتى اجتمعت الأمة على معاوية؛ وسموها سنة الجماعة^(١٦). هذا الرأي يتضمن عدة أمور فهو يقول إن الأمة هي التي سمت عام مبايعة معاوية سنة

٤١. الدارمي، عبدالله بن عبد الرحمن (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٩م)، سنن الدارقطني ج ١، ص ٦٩.

٤٢. جمعت آثاراً في الجماعة والإجماع في دراستي السابقة الذكر رقم ٤ وانظر Weinsinck, Handbook 48.

٤٣. انظر دراستي السابقة الذكر رقم ٤.

٤٤. انظر:

L. Gardet "Dgamaa" E.I² pp. 411-412

وقارن بقول بعض الشاميين في ذلك عند أبي زرعة في التاريخ ج ١، ص ٢٨.

٤٥. المصنف لعبد الرزاق ج ٥، ص ٤٦١، ٤٦٣، وانظر كذلك، ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم (ت ١٢٣٢هـ / ١٢٣٢م) الكامل في التاريخ (١٢) جزء قام بتحريره ونشره Carolus Jo Tornberg. بريل ليدن ١٩٦٧،

اعادت تصويره بالأوفست دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٥-١٩٦٦، ج ٣، ص ١٢٥-١٢٧.

وانظر كذلك، فتح الباري لابن حجر، ج ١٣، ص ٤٩-٥٠.

٤٦. تاريخ أبي زرعة، ج ١، ص ١٨٨

الجماعة. ويقول إن الذين خرجوا على عثمان وقتلوه شقوا عصا الأمة فاختلفت، فهم بذلك خوارج على الجماعة شاذون في النار بمقتضى الحديث السالف الذكر. وكأنما أحس سعيد بن عبد العزيز أنه مضى بعيداً في فهمه للجماعة فحاول تعليل ذلك بأن الاختلاف الذي أحدثه استشهاد أمير المؤمنين عثمان عطل الغزوات، فعطل الجهاد، فتهدد الوجود الإسلامي كله الذي الجهاد عماده. وقد علمنا من قبل مدى حساسية أهل الشام تجاه مسألتى الجهاد والرباط. فالوضع الذي يعطلهما هو وضع غير شرعي، والمسؤولون عنه خارجون على الجماعة. وتسمية عام البيعة لمعاوية سنة الجماعة شائعة بين محدثي الشام، بل يبدو أنهم هم الذين ابتدعوها، إذ يقول شامي كبير آخر هو أبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر: إن معاوية بويع سنة أربعين، وهو عام الجماعة^(٤٧) بل إن أبا مسهر نفسه يذكر أن الناس اجتمعوا على مروان عام ٦٥هـ^(٤٨). ولا ندري من هم هؤلاء الناس؛ هذا أن لم يكن أبو مسهر يرى أن المصريين والشاميين هم الناس جميعاً. ويذكر محدث شامي هو عمرو بن قيس فخوراً بذلك أنه ولد عام الجماعة، أي سنة أربعين للهجرة^(٤٩).

وتبدو مسألة الإجماع أو الاجتماع على معاوية مهمة جداً للشاميين؛ لذلك يحاولون إثباتها بكل سبيل. وأظهر وسائلهم لذلك اثنتان إحداهما مضمونية والأخرى تاريخية. أما المسألة المضمونية فتتعلق بالجهاد حافظ الوجود الإسلامي بالشام. فقد رأينا وجهة نظر سعيد بن عبد العزيز الشامي التي ذكر فيها أن الاختلاف عطل الجهاد. بعد هذا يتابع مقولته وقد بويع معاوية^(٥٠) فأعزا معاوية الصوائف وشتاهم بأرض الروم ست عشرة صائفة تصيف وتشتو ثم تغفل وتدخل معقبتها. ثم اغزاهم معاوية ابنه يزيد في سنة خمس وخمسين في جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في البر والبحر حتى جاز بهم الخليج، وقتلوا أهل القسطنطينية على بابها ثم قفل.

والدليل التاريخي لشرعية معاوية والإجماع عليه يتمثل في تأييد كثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم له في نظر الأوزاعي. يقول الأوزاعي^(٥١): «أدركت خلافة معاوية عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم سعد وأسامة وجابر وابن عمر... الخ ورجال أكثر ممن سميت بأضعاف مضاعفة، كانوا مصابيح الهدى، وأوعية العلم... ومن التابعين لهم بإحسان... كل هذا مهم؛ لكن ما هو أهم ما ينهي به الأوزاعي عبارته: «لم ينزعوا يداً عن مجامعة في أمة محمد صلى الله عليه وسلم». لقد دخلوا في الجماعة؛ أي أنهم بايعوا معاوية وأطاعوه.

وكانت رواية الشاميين عن عمر بن الخطاب قد شرطت الاستمرار بالإسلام والجماعة، واشترطت لاستمرار الجماعة الإمارة، ثم علفت استمرار الإمارة على الطاعة. كان معاوية حقيقاً بالطاعة لإجماع الصحابة والتابعين عليه، ولقيامه بأمر الجهاد. وقد روى الشاميون آثاراً نبوية تجعل الطاعة ضرورة دينية ما أقام الإمام الصلاة والجهاد. ففي حديث للصحابي المرباط بالشام عوف بن مالك (ت ٦٩٢م / ٥٧٣هـ) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه عنه الشاميان الوليد بن مسلم ويحيى بن جابر أن النبي قال لعوف إن عليه طاعة الأئمة وإن أخطأوا أو عصوا؛ وعندما قال له عوف: أفلا ننايهم عند ذلك؟ قال: لا! ما أقاموا فيكم الصلاة؛ إلا من ولي عليه وال. فرأه يأتي شيئاً من معصية الله فليذكر ما يأتي من معصية الله ولا ينزع يداً عن طاعة^(٥٢). وعندما زار الصحابي المشهور حذيفة بن اليمان العبسي (ت ٣٤هـ / ٦٥٤م) الشام روى عنه الشاميون حديثه المشهور في التزام الجماعة في الفتنة ورواة الحديث هم الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن بسر بن عبيد الله الحضرمي عن أبي إدريس الخولاني عن حذيفة، فهم جميعاً شاميون كما نرى؛ وقد علمهم حذيفة أن عليهم في الفتنة أن يتقدموا مع جماعة

٤٧. المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٠.

٤٨. المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩١، ١٩٢.

٤٩. المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥٧.

٥٠. المصدر نفسه، ج ١، ص ١٨٨.

٥١. المصدر نفسه، ج ١، ص ١٨٩-١٩٠.

٥٢. مسند أبي عوانة، ج ٢، ص ٤٨٢.

المسلمين وإمامهم؛ فإن لم تكن هناك جماعة ولا إمام فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى العزلة أو الاعتزال، فكن جليس بيتك ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك^(٥٢).

إنها الطاعة إذن، الطاعة في المعروف؛ ما دامت هناك جماعة، وهناك إمام يقيم الصلاة، ويجاهد العدو. فقد ذكر كهمس التميمي (١٤٩هـ / ٧٦٦م) عن الحسن البصري (ت ١١٠هـ / ٧٢٨م) أن الحسن سئل: تغزو مع الأمراء فما يطلعونا على أمرهم؛ غير أنا نسالم إذا سالموا، ونحارب إذا حاربوا! قال: قاتل مع المسلمين عدوهم! وقد تلقى الشاميون هذا الرأي بالقبول وأكثروا من تكراره^(٥٣). وعرف أهل الشام عبر التاريخ بحسن الطاعة للأئمة ما أقاموا الجهاد^(٥٤).

ومصطلح الفتنة هو الذي يقابل مصطلح الجماعة. إنه حالة السلب بل هو الحالة غير الطبيعية التي يمكن أن تحدث للأمة عند الانقسام والاختلاف؛ وما كان هناك اختلاف ضخم على غير الإمامة كما يقول الأشعري^(٥٥) ويبدو أن المفهوم (الفتنة: الحرب الأهلية) ظهر أواخر الثلاثينات من القرن الأول الهجري؛ إذ في ذلك الحين انتشرت أحاديث كثيرة عن الفتنة وكيفية السلوك فيها^(٥٦). وقد ذكرنا من قبل حديث عوف بن مالك عند أهل بلاد الشام في كيفية السلوك في الفتنة. إلى ذلك يضاف حديث الصحابي -ابن معبد الذي نزل الشام وأقام بالرقّة، وذكر عن عبدالله بن مسعود فتنة الهرج التي يكون القاعد فيها خيراً من القائم، والقائم خيراً من الماشي، والماشي خيراً من الساعي. واستمع إلى نصيحة ابن مسعود بالتزام الدار أو المسجد حتى يموت على ذلك*. فلما كانت كائنة عثمان اعتزل وابصة، الأحداث كلها^(٥٨).

السلوك الجماعي المثالي في الفتنة إذن عند فقهاء الشام هو الاعتزال. لكننا نعلم أن أكثر قراء الشام انحازوا في الفتنة الأولى لمعاوية. ويتحدث نصر بن مزاحم صاحب «وقعة صفين» عن جماعة صغيرة من قراء حمص أبت أن تقاتل في الفتنة، ومضت فرابطت في «السواحل» (بيروت وعسقلان) حتى «عام الجماعة»^(٥٩).

وجاء «عام الجماعة» لينقذ الجميع من كل إحراج، فعادت الأمور إلى نصابها. وانصرف المحدثون والفقهاء الشاميون للعمل في نطاق الجماعة. وظلت مسألة شرعية الأمويين القضية الرئيسية الثانية لديهم بعد الجهاد والرباط. فقد شارك الجميع بالرواية وإبداء الرأي في الدفاع عن معاوية^(٦٠) وابنه^(٦١)، ومروان بن الحكم^(٦٢)، وعبد الملك بن مروان^(٦٣) والوليد بن عبد الملك^(٦٤)، وسليمان بن عبد الملك^(٦٥). وما كاد

٥٢. صحيح الإمام مسلم، ج ٢، ص ٤١٢، ومسنّد أبي عوانة، ج ٤، ص ٤٧٤-٤٧٥.

٥٤. المصنف لعبد الرزاق، ج ٥، ص ٢٨ رقم ٩٦١٣.

٥٥. تاريخ أبي زرعة، ج ١، ص ٣١٦.

٥٦. الأشعري، علي بن إسماعيل بن إسحاق (ت ٢٤٤هـ / ١٩٤٧م)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ص ١٦.

٥٧. يذكر الزهري الفتنة الأولى في رواية له عن أحداث العام ٣٥ هـ وما بعد (المصنف لعبد الرزاق ٤٦٣/٥) والهرج في العربية الجنوبية: القتل (المعجم السبئي ص ٥٦-٥٧) وكنت في دراستي عن ثورة ابن الأشعث والقراء (فرايبورج ١٩٧٧) (ص ٣٢٨-٣٣٢) قد جمعت نصوصاً كثيرة مبكرة يرد فيها المفرد رداً على شاخت وشعبان وجوينبول الذين يريدون تأخير ظهور المصطلح حتى مطلع القرن الثالث الهجري، فراجع تفصيلات المسألة هناك.

٥٨. القشيري، محمد بن سعيد بن عبد الرحمن (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٦م)، تاريخ الرقة ومن نزل بها، ص ٢٠-٢١. وأحاديث الفتنة كثيرة في كتب المحدثين وكنت قد جمعتها ودرست رواياتها في عملي عن ابن الأشعث والقراء السالف الذكر، ص ٢٩٨-٣٣٥.

٥٩. نصر بن مزاحم (ت ٢١٢هـ / ٨٢٧م) وقعة صفين، ص ٥٧٢، انظر كذلك، ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، شرح نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٢٨، وفي مصنف عبد الرزاق ج ٥، ص ٤٦٤ حديث عن معتزلة الفتنة الأولى، وكنت قد درست اعتزال القراء في دراستي السابقة الذكر ص ٣٣٥ وما بعدها.

٦٠. تاريخ أبي زرعة، ج ١، ص ٣٣١، ص ٣٨٠-٣٩٠.

٦١. المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٠.

٦٢. المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٦.

٦٣. المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٢، ٢٣٧، ٣٠٩.

٦٤. المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٧.

٦٥. المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٣-١٩٤.

الأمويون يسقطون عام ١٣٢هـ/ ٧٤٩م) حتى كانت صورة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ/ ٧١٩-٧١٧م) قد اكتملت تقريباً على أيديهم. وهي صورة تجعله خامس الراشدين^(٦٦)، جاعلة ترتيب الراشدين في الفضل كترتيبهم في الخلافة^(٦٧).

ورأى فقهاء الشام ومفتوهم وقراؤهم أن أسلم السبل للحفاظ على الجماعة اتباع السنة. ويبدو أن السنة عنت لهم بداية سيرة النبي (أقواله وأفعاله وهمه وعزمه)^(٦٨)؛ ثم اتسع المفهوم على يد الزهري (ت ١٣٤هـ/ ٧٤١م) عندما دخل الشام عام ٨٢هـ/ ٧٠١م فصارت «السنة» تعني ما يشبه أن يكون الماضي كله (الصحابة والتابعين)^(٦٩) فيعقوب بن سفيان يروي عن شيوخه عن عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ/ ٧١٩م) قوله^(٧٠): «سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر بعده سنناً الأخذ بها تصديق لكتاب الله.. ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها..» إنها سيرة السلف الصالح التي ينبغي التمسك بها لتبقى الجماعة. والأوزاعي يروي عن يونس بن يزيد عن الزهري قوله^(٧١): الاعتصام بالسنة نجاة.. ويروي عن عبدالله ابن الديلمي^(٧٢) أن أول ذهاب الدين ترك السنة ويروي عن حسان بن عطية الشامي^(٧٣): ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها ثم لا يعيدها عليهم إلى يوم القيامة. ويقول^(٧٤): إن الشيطان بث الأهواء في بني آدم لإضلالهم عن السنة. أما أبو إدريس الخولاني الشامي فيقول^(٧٥): لأن أرى في المسجد ناراً لا أستطيع أن أطفئها أحب إلي من أن أرى فيه بدعة لا أستطيع تغييرها.

والواضح من هذه النصوص كلها أن المفهوم المقابل للسنة هو البدعة. والبدعة عند فقهاء الجماعة بالشام ضلالة دون تفریق بين صغيرها وكبيرها، حسنها ورديتها. ذلك أن شر الأمور محدثاتها كما جاء في أثر تداوله الشاميون^(٧٦). وقد رأى أبو قلابة الجرمي الزاهد الشامي المعروف أن البدعة فظيعة الآثار مهما ضوّلت؛ فقال^(٧٧): «أهل الأهواء أهل الضلالة.. فجربهم فليس أحد منهم ينتحل قولاً يتناهى به الأمر دون السيف». فالخروج عن «سنة» السلف يحدث اختلافاً يقسم كلمة الجماعة، ويؤدي إلى سفك الدم.

لقد كان فقهاء الشام يخشون التنازع في الدين والاختلاف وكانوا يرون ما يحدث بالعراق من نزاعات دينية وسياسية تفرق كلمة الجماعة، وتسفك دماء المسلمين. وكانوا يروون عن معاوية مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله^(٧٨): إن أهل الكتاب افترقوا على اثنين وسبعين فرقة كلها في النار إلا

٦٦. انظر عن صورة عمر روايات مبكرة عند أبي زرعة ٣٤٠/١، ٣٤١-٣٤٠، وفي المعرفة والتاريخ للفسوي ٥٦٨/٢. وقد وصلتنا ثلاثة مؤلفات ضمت هذه الروايات إلى مرويات متأخرة عن عمر هي سيرته لابن عبد الحكم (٢١٤ هـ)، وسيرته للأجري (٣٦٠ هـ)، وسيرته لابن الجوزي (٥٩٨ هـ).

٦٧. في تاريخ أبي زرعة ٣٤٠/١ عن ميمون بن مهران: «كنت أفضل علياً على عثمان رحمة الله عليهما. فقال لي عمر بن عبد العزيز: أيهما أحب إليك رجل أسرع في كذا (الدماء) أو رجل أسرع في المال؟! قال فرجعت وقلت: لا أعود.

٦٨. انظر عن مفهوم السنة وتطوره السنة ومكانتها في التشريع للشيخ السباعي، والسنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب وقارن بفضل الرحمن: الإسلام (بالانجليزية) ص ٤٣-٦٧، وأنصاري عن المصطلح الفقهي قبل الشافعي (مجلة ارابيكا، ١٠٠، ١٩٦٣).

٦٩. انظر عن رأي الزهري في معنى السنة الفسوي، أبو يوسف يعقوب (ت ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م)، المعرفة والتاريخ، ج ٢، ص ٦٤٢، ٦٤١، ٦٣٧.

٧٠. المصدر نفسه، ج ٣ ص ٣٨٦. انظر كذلك، الخطيب البغدادي (ت ٤٩٥ هـ/ ١٠٧٢م)، الفقيه والمتفقه، ج ١، ص ١٧٣ وقارن بكتاب البدع لابن وضاح، ص ٣٠-٣١.

٧١. سنن الدارمي، ج ١، ص ٤٤.

٧٢. الفسوي، المعرفة والتاريخ، ج ٣، ص ٣٨٦. وشرح السنة للألكائي ق ٢١ ب، وسنن الدارمي، ج ١، ص ٤٤.

٧٣. الفسوي، المعرفة والتاريخ، ج ٣، ص ٣٨٦، وشرح السنة من ٢١ ب، وسنن الدارمي، ج ١، ص ٤٤، والبدع لابن

النسوي، المعرفة والتاريخ، ج ٣، ص ٣٨٥، وشرح السنة ق ٣٢ ب.

٧٤. ابن وضاح، البدع، ص ٣٦.

٧٥. المصدر نفسه، ص ٢٠-٢١.

٧٦. سنن الدارمي، ج ١، ص ٢٤.

٧٧. الفسوي، دار المعرفة والتاريخ، ج ٣، ص ٣٨٢. وشرح السنن ق ٣٢ ب.

واحدة وهي الجماعة. والتمسك الشديد بالسنة من أجل الإبقاء على الجماعة المجاهدة هو الذي دفع كثرتهم الكاثرة للوقوف في وجه كل المستجدات وإن كان ظاهرها حسناً. فالمشهور أن اسماعيل بن عبيدالله^(٧٩) والأوزاعي^(٨٠) وعبادة بن نسي^(٨١) ونمير بن أوس^(٨٢) ورجاء بن حيوة^(٨٣) وخالد بن الجلاح^(٨٤) وهم كبار علماء الشام؛ وقفوا ضد القدرية، وأفتوا بحل دمائهم، ورحبوا بقتل معبد وغيلان وصالح، زعماء القدرية. والمعروف أن علماء حمص أخرجوا ثور بن يزيد لأنه كان قدرياً.^(٨٥) وهناك حملة من جانب الشاميين على المرجئة وأصحاب أبي حنيفة لاعتقادهم أنهم ابتدعوا في الدين^(٨٦).

يصعب الحديث عن شخص أو مجموعة من العلماء بالشام أدت دوراً واعياً في إعادة تأويل المفاهيم التي عرضنا لها ونشرها. فلا يبدو أن صحابياً معيناً على أي حال أدى دوراً كبيراً في هذا الشأن. ربما باستثناء أبي الدرداء الذي اقتدى به الشاميون في الإقراء والرباط. أما التابعون فتكثر حول أهمهم الروايات تبعاً لاختلاف هوى الناقل واتجاهه. فيذكر أبو زرعة مثلاً أن رجال العلم والزهد في أول أيام عبد الملك (٦٥-٨٦هـ / ٦٨٤-٧٠٥م) كانوا^(٨٧): ربيعة بن عمرو الجرشي، ويزيد بن نمران الذماري، ويزيد بن الأسود الجرشي. لكننا لا نجد لهم أثراً مروية تلفت الانتباه. ويورد أبو زرعة تعداداً آخر لاشهر علماء عهد هشام بن عبد الملك (١٠٦-١٢٤هـ / ٧٢٤-٧٤١م) فإذا هم^(٨٨) نمير بن أوس ويزيد بن يزيد بن جابر، ويحيى بن يحيى الفساني، ويزيد بن أبي مالك. أما فيما عدا يزيد بن جابر الذي عرفنا له عدة روايات، فليس لبقية المذكورين شأن يعرف. لذلك سنعمد إلى تأمل المسألة من حيث التأثير والقوة لا من حيث عدد الروايات أو آراء بعض الأصحاب. أما قبيصة بن ذؤيب (ت ٨٦هـ / ٧٠٥م) ورجاء بن حيوة (ت ١١٢هـ / ٧٣٠م) فقد صحبا بعض الخلفاء منذ أيام عبد الملك؛ وكان لهما تأثير في قضايا الديوان. ويقال إن رجاء كان له دور بارز في تولية عمر بن عبد العزيز بعد سليمان بن عبد الملك^(٨٩) (٩٦-٩٩هـ / ٧١٤-٧١٧م) ويبدو أن الزهري (ت ١٢٤هـ / ٧٤١م) أثر في مسألة السنة، وقضايا الجهاد، والمغازي في حين يشدد اعتزاز أهل الشام بمكحول (ت ١١٣هـ / ٧٣١م) الذي كان فقيهاً كبيراً ترك تلامذة كثيرين. ويذكر الشاميون لميمون بن مهران (ت ١١٨هـ / ٧٣٦م) تخرجه في سفك الدم واصراره على السنة. وكذا الأمر فيما يتصل بأبي قلابة (ت ١٠٦هـ / ٧٢٤م). أما أبو إدريس الخولاني (ت ٨٠هـ / ٦٩٩م) وابن محيريز (ت ٨٠هـ / ٦٩٩م)، وخالد بن معدان (ت ١٠٤هـ / ٧٢٢م) فهم زهاد مرابطون أثروا في الأوزاعي (ت ١٥٧هـ / ٧٧٣م) وبعض المتأخرين من مثل ابن المبارك صاحب كتاب «الجهاد» والفضيل بن عياض، وسفيان الثوري، وأبي إسحاق الفزاري، الذين رابطوا في الثغور اقتداءً بالسلف الشامي الصالح.

٧٩. تاريخ أبي زرعة، ج ١، ص ٢٥٤
٨٠. المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥٤. وانظر كذلك ابن عبد ربه الفريد، ج ٢، ص ٣٨.
٨١. المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٧٠.
٨٢. المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٧٣.
٨٣. المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٧٠.
٨٤. المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٧٠.
٨٥. المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٧١.
٨٥. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٣١٠، وتهذيب ج ٣، ص ٣٨٤.
٨٦. تاريخ أبي زرعة ٨/١. وليوسف فإن أسس عدة دراسات عن القدرية ببلاد الشام وبشكل عام من مثل موقف عمر بن عبد العزيز منهم، وآراء غيلان وصالح ومعبد من قبل، وقدرية يزيد بن الوليد، منها بدايات علم الكلام في الاسلام (بيروت ١٩٧٤)، الجهني (فيسباين ١٩٧٤) ومادة قدرية في النشرة الجديدة من دائرة المعارف الاسلامية كما أن له دراسات عن المرجئة وكتاب الأرجاء لمحمد بن الحسن بن الحنيفة (مجلة أريبيكا، ٢٢، ٢١، ١٩٧٤، ٧٥).
٨٧. تاريخ أبي زرعة ٣/١، ٢٤٩.
٨٨. المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٥٠.
٨٩. حظي رجاء بن حيوة من أجل المذكور باهتمام الدارسين المحدثين فهناك مقالان عنه، أولاهما لجوت بك Gottschalk في الكتاب التذكاري ل Eilers عام ١٩٦٧ (ص ص ٢٢٨-٢٤) تحاول أن تحدد مدى تأثيره في القرار الأموي وثانيهما سيرة مسهبة ل ليو زورث في ISI. Q ١٦ (١٩٧٢) (ص ص ٣٦-٨٠).

ولا شك أن الأوزاعي (ت ٢٥٧هـ/٧٧٣م) إلى جانب الزهري ومكحول أهم من عرفتهم بلاد الشام في القرنين الأولين للهجرة. فقد أسهم الأوزاعي في سائر النشاطات النظرية والعملية ففضى حياته مرابطاً وغازياً بالساحل. وترك كتابات وفتاوي في سائر أبواب الفقه أهمها ما تركه في السير والمغازي والجهاد. ويبدو أن مفهومه للجماعة والسنة والبدعة الذي استمده في الأصل من الزهري، هو الذي ساد في النهاية في أوساط أصحاب الحديث. وقد اعتنق الشاميون مذهب الفقهي حتى القرن الثالث حين بدأ دخول المذهب الشافعي^(٩٠) وكانت آراؤه قد انتشرت بالأندلس ثم حل محلها مذهب الإمام مالك^(٩١) ويبدو ذلك منطقياً لتشابه اتجاهات مالك والأوزاعي في أكثر القضايا. أما انتقال أهل الشام إلى مذهب الإمام الشافعي فيبدو معارضة غير واعية للسلطة العباسية التي كانت ما تزال تؤثر الاحناف والمالكية ببغداد.

ليس ضرورياً القول بعد هذا كله ان اتجاهات علماء الشام التي عرضنا لها آنفاً وجدت لها مكاناً بدرجة أو بأخرى في عقيدة أهل السنة والجماعة. فالمفاهيم الرئيسية الثلاثة للجهاد المقارن للهجرة. والجماعة، والسنة، واضحة الظهور في كتب العقائد منذ القرن الثالث الهجري وما بعد. بل إن أقوال علماء الشام في الجماعة والسنة، والخلفاء والطاعة هي الأبرز في هذه الكتب، هذا إذا استثنينا أقوال مالك ابن أنس، فقد تحول الشاميون إلى «سلف صالح» للحنابلة ومتقدمي الشافعية^(٩٢) وقد عدت لعقيدة ابن بطة وسنن اللالكائي، وشريعة الآجري، وعقيدة الطحاوي، وعقيدة ابن قدامة، وإبانة الأشعري، فلم أجد اختلافاً في المفردات مع علماء الشام الأوائل إلا فيما يتصل بمسألة الجهاد فالمعروف أن الذي استقر في مذاهب فقهاء السنة أن الجهاد فرض كفاية لا فرض عين. في حين كان فقهاء الشام الأوائل عطاء ومكحول والأوزاعي يرون أنه فرض عين أو واجب كما قالوا. لكن هذا الاختلاف يختفي إذا ما احتلت أرض من أرض المسلمين إذ يصبح الجهاد فرض عين عند الشاميين وغيرهم. ويظهر هذا الاختلاف على أي حال خصوصية عرفت بها بلاد الشام بسبب موقعها في قلب دار الإسلام من جهة، وكونها ثغراً للإسلام من جهة ثانية. إن عليها أن تحمل راية هذا الدين عن طريق الدعوة والجهاد فتتقدم المسلمين وتكون افقهم على العالم، لكنها تظل بسبب من هذه المهمة نفسها بحاجة إلى دعم الداخل ووحدته من ورائها لتستطيع أداء المهمة على الوجه الذي يرضي الله ورسوله.

ذكر عمير بن هانيء أن أمير المؤمنين معاوية خطبهم بدمشق فقال، سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله عز وجل وهم على ذلك». قال عمير بن هانيء: «فقال مالك بن نجار فقال: سمعت معاذ بن جبل يقول: وهم بالشام فقال معاوية: هذا مالك بن نجار، وبه القسمة، زعم انه سمع معاذاً يقول وهم بالشام^(٩٣) إنهم لا شك بالشام. وكما قال أبو إدريس الخولاني فإنه لا ضيعة على من تكفل الله به.

وتبقى مسألتان منهجيتان يحسن أن أعرض لهما هنا في سطور. تتصل أولاهما بعلاقة النص بالواقع خصوصاً إذا كان الأثر غير مزامن كأن يكون حديثاً نبوياً أو قولاً لصحابي متوفى قديماً مثل معاذ بن جبل أو أبي عبيدة بن الجراح أو يزيد بن أبي سفيان في مبحثنا هنا. فقد قمت بتحديد خصوصية موقع الشام وبالتالي خصوصية بعض الفكر المأثور أو المنشور الذي ظهر فيه. فكيف يمكن أن يكون الفكر خاصاً إذا كان صادراً عن غير شامي أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لو لم يكن صحيح النسبة إليه كما هو الشأن في أكثر أحاديث فضائل الشام؟! إن الشاميين هنا استغلوا الموجود في البيئة من المادة، وقاموا

٩٠. الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله بن محمد (ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧م) دول الإسلام، ج ١، ص ١٥٧ وتهذيب الأسماء واللغات ج ١ ص ٢٩٨

٩١. ابن عساکر، تهذيب تاريخ دمشق، ج ١، ص ٢٢٣، ٢٢٤-٢٢٥

٩٢. ابن عساکر، تاريخ دمشق الكبير، ج ١، ص ٥

٩٣. يذكر ابن عساکر عقيدة سنية مبكرة للمدعو محمد بن عكاشة الكرماني الدمشقي تلاها بدمشق عام ٢٢٥ هـ جاء فيها (تهذيب دمشق ١٣٣/٣-١٣٤): «... الرضا بقضاء الله وترك الخصومات في الدين.. والجهاد مع كل خليفة.. وصلاة

الجمعة خلف كل بر وفاجر.. والجهاد تحت لواء السلطان على ما كان منه من عدل أو جور، وأن لا نخرج على الأمراء بالسيف وإن جاروا.. وأفضل الناس عثمان ثم علي».

بإعادة تأويلها أو شرحها في ضوء الواقع الذي يعايشونه وليس هناك نص ذو قراءة واحدة إلا ان يكون كلاماً لا يرقى إلى مستوى النص المقنع الفاصل عن الواقع، والمتمثل له في الوقت نفسه. والراوي هنا ليس مجرد ناقل بل إنه لا يستطيع أن يكون كذلك لأن النص لا يخدمه فيما يريده أو فيما هو بسبيله في هذه الحالة. إنه مشارك أو صانع أو قارئ جديد. وقد رأينا كيف قرأ الشاميون نصوص الجهاد والجماعة في ضوء جديد. فسواء أكان معاذ بن جبل قال حقاً هذا القول أم لم يقله ليس ضرورياً أن يكون الأوزاعي راوي القول عن معاذ مثلاً قد ابتدعه أو انتحلته إنه قد يكون قراه أو نشره فقط (بالمعنى الأصلي للنشر والنشور في اللغة).

والمسألة الثانية تتصل بعمومية هذه المفاهيم المنسوبة للشاميين إلى حد ما هنا إنهم لم يكونوا الوحيدين الذين فكروا بهذه الطريقة في القرن الأول. ثم إن ظهور هذه المفاهيم فيما بعد في بيئات أخرى ينفي أية خصوصية لها. والحق أن النص الديني ليس نصاً عادياً لا بسبب «إيمان» أصحابه به، بل بسبب بنيته الذاتية. والمهم ليس عمومية أي نص أو خصوصيته، بل تناسق التركيب الداخلي أو العناصر الداخلية للمنظومة المضمونية له. وقد حاولنا أن نظهر تحاور المفاهيم الثلاثة: الجهاد والجماعة والسنة ضمن المنظومة الاجتماعية والسياسية والفكرية التي ظهرت فيها. ولا شك أن المفردات نفسها في بيئات أخرى ستتحاور فيما بينها بشكل آخر، وضمن نطاق مفهومي مختلف وإن ظلت المشابهة تبدو بدهية.